'حزب الله' في الإستراتيجية الإيرانية الجديدة

25-9-2005

بقلم: عبد الحق بوقلقول

من هنا جاء الفرصة التي ما كان على الحزب تجاوزها، والتي تمثلت في تطور راديكالي على مسرح المنطقة وتغير مراكز القوى في دولة هي أساسا تمثل المرجعية السياسية قبل المذهبية في الفكر الشيعي الذي تنبني عليه أبجديات حزب الله، وهذه الفرصة المواتية هي في الواقع صعود نجم محمود أحمدي نجاد إلى رأس الحكم في طهران، وكل ما يعنيه هذا التغير من تداعيات في إيران ذاتها، ومن ثمة، في كل تلك النقاط الدائرة في فلك طهران.

في مقال كتبه محرر الشئون الإستراتيجية في جريدة معاريف الإسرائيلية، عمير ربيورت، تحت عنوان "المواجهة الكبرى تقترب" جاء فيه: "في مرحلة من المراحل، آجلاً أو عاجلاً، ستشن إسرائيل هجوماً كبيراً ضد حزب الله".

الحقيقة أن الكل بات يدرك الآن أن موازين القوى التي فرضت حدا من "توازن الرعب" على جانبي الخط الأزرق -لتسمية التي تطلقها الأمم المتحدة على الحدود بين لبنان وأراضي الـ 48 المحتلة- تغيرت بشكل كبير، وهذه التغيرات مردها من غير شك التحولات العميقة التي شهدتها الساحة اللبنانية نفسها بعد انسحاب الوحدات العسكرية السورية، وما رافق ذلك من جملة ضغوط هائلة على الحكومات التي سقطت الواحدة تلو الأخرى بفضل إصرار "المجموعة الدولية".

* حزب الله في الحسابات السورية: لن نكشف سرا حينما نقول إن نظام البعث في سورية جعل من حزب الله منذ سنوات طويلة ورقة ذات دور مؤثر في الساحة اللبنانية أولا ثم في إطار المواجهة العسكرية غير المباشرة بين دمشق وتل أبيب، بما أنه لم يكن في مقدور الأولى أن تدخل في مواجهة صريحة مع إسرائيل بالنظر إلى التفوق الواضح للدولة العبرية من الناحية العسكرية على الأقل، وبالتالي فإن نظام حافظ الأسد، ومن بعده ابنه بشار الماسك بزمام السلطة منذ أكثر من خمس سنوات، عمل على إيجاد حد أدنى من التوازن على جانبي الحدود من خلال تموين مقاتلي الحزب بأسلحة تعد إستراتيجية في مثل هذا النوع من الصراع، وتحديدا صورايخ الكاتيوشا التي كان لها الدور الفعال في تهديد كامل للشمال الإسرائيلي.

لقد تغير هذا الواقع الآن، ولم يعد لهذه العمليات في نظر "الشرعية الدولية" أي مبرر منذ إقدام إسرائيل على الانسحاب من معظم الجنوب اللبناني، من غير أن ننسى الإشارة هنا إلى عدم وضوح وضعية مزارع شبعا التي ما تزال إسرائيل تسيطر عليها، والتي يبدو وأنها سوف تخضع للتحكيم الدولي وفقا لآخر المستجدات.

وإن هذه التطورات مجتمعة جعلت قيادة حزب الله تدرك أن ثقلها العربي كقوة طلائعية منحتها مواجهتها المباشرة للكيان الغاصب، شرعية إقليمية على الأقل، تقتضي البقاء في حالة عداء عملي أزلي مع إسرائيل، مما يعني الحفاظ على حد أدنى من المواجهة التي كانت وما تزال مثلما قلنا، سببا رئيسا في القوة التي يحظى بها الحزب داخل الخارطة السياسية الشرق أوسطية على وجه عام.

إن التطورات التي فرضتها التحولات الأخيرة ونعني بها هنا، الانسحاب السوري الكامل من لبنان تحت ضغط القرار الأممي 1559، أفرزت تأثيرا أثقل كاهل الحزب وزاد من حجم التحديات التي تواجه مستقبله، بأن ركز نظر الغرب -بدلا من أن نقول المجموعة الدولية حتى يتوضح المعنى بشكل أدق- وأعطى ذرائع جديدة لهؤلاء للتركيز على موضوع نزع أسلحة هذه "الميلشيا" كإجراء قانوني أممي تحت غطاء الحرص على السيادة الدستورية في بلد لن نغالي كثيرا حينما نقول إنه يقع تحت طائل دستور هو من أغرب دساتير العالم.

من هنا جاء الفرصة التي ما كان على الحزب تجاوزها، والتي تمثلت في تطور راديكالي على مسرح المنطقة وتغير مراكز القوى في دولة هي أساسا تمثل المرجعية السياسية قبل المذهبية في الفكر الشيعي الذي تنبني عليه أبجديات حزب الله، وهذه الفرصة المواتية هي في الواقع صعود نجم محمود أحمدي نجاد إلى رأس الحكم في طهران، وكل ما يعنيه هذا التغير من تداعيات في إيران ذاتها، ومن ثمة، في كل تلك النقاط الدائرة في فلك طهران.

* أحمدي نجاد والفرصة التاريخية: من الواضح أن حزب الله سوف يلعب في الأشهر، أو السنوات القادمة على الأقل، دورا ترجيحيا لصالح إيران، والكل أدرك أن الزيارة التي قام بها أمينه العام حسن نصر الله إلى طهران خلال مراسيم تنصيب الرئيس الجديد هناك جاءت لتعزز فرضية هذا المنحى الجديد في المنطقة.

إن تنقلات قائد الحزب كانت تتم عادة في ظل إجراءات من التكتم الشديد بسبب ما قد يعنيه فقدان هذا الأخير في هذا الظرف الحساس على التوازن داخل الحزب أساسا، بالنظر إلى ثقل الأمين العام، ومن غير أن ننسى تلك التصدعات العميقة التي سوف تظهر لو أنه اختفى كلية، ونعني هنا بكل تأكيد شخصية صبحي الطفيلي، إلا أن هذه المخاطر لم تكن لتمنع نصر الله هذه المرة أن يحضر المراسيم البروتوكولية لتنصيب أحمدي نجاد في طهران من 1 إلى 8 آب/أغسطس الماضي، وهي المناسبة التي لم يشأ الأمين العام أن يفوتها قبل أن يضع مجموعة من التطورات قيد التنفيذ، لأن حضور مراسيم كهذه لا تتطلب عادة مكوثا مطولا.

أولا، يجب علينا أن نذكر أن السيد حسن نصر الله سيكون من غير شك أول المبتهجين بهذا الوافد الجديد إلى رأس الجمهورية في طهران، لأن الاثنين كانا منذ سنوات طويلة صديقين حميمين بما أن كليهما كان، وفقا لمصادر أوروبية، في بلد آسيوي لغرض التدرب على العمل الاستخباراتي قبل أن يلتقيا مجددا بعد ذلك بعشر سنوات في لبنان، وبعد أن أصبح نصر الله أمينا عاما لحزب الله منذ 1992 ووصول محمود أحمدي نجاد من إيران لأجل الإشراف على "مؤسسة الشهداء" إحدى أهم أذرع إيران الخارجية.

وحتى إن كانت إيران تضخ سنويا ما قيمته 25 مليون دولار في خزائن الحزب، رغم أن هذه الأرقام نستقيها من مصادر أوروبية، مما يعني وجوب التحفظ إزاءها، إلا أن السيد نصر الله مثلما

قلنا لم يكن أساسا ملزما بالبقاء في إيران لفترة ثمانية أيام كاملة، لو أنه حضر إلى هناك لأجل المجاملات الدبلوماسية التي تقتضيها الأعراف السياسية، مما يعني أن الزيارة كانت مناسبة مثلى لإجراء مفاوضات مع كبار القيادات في إيران ولبحث الوضع في العراق المجاور، بما أن كلتا الجهتين يهمها من الناحية العملية، استمرار التدهور الأمريكي هناك، لأن هذا الوضع هو وحده، الكفيل بجعل واشنطن تراجع حساباتها ألف مرة قبل الإقدام على مشاريع توسيع مفاهيم من طراز "حرية العراق".

* قراءة في مستقبل دور الحزب: من الواضح أن إيران و معها حزب الله هي في مقدمة القوى التي يهمها الفشل الأمريكي سياسيا قبل الشق العسكري، مما يستلزم بصورة آلية، العمل على توسيع رقعة الفوضى في العراق، وبالتالي حرص كليهما، على تقوية وتركيز العمليات التي تهدف إلى تقويض الجهد الأمريكي والعراقي معه، وإنزال أقصى الخسائر بتلك القوات حتى تختلط الحالة بشكل أكبر مما هي عليه الآن.

إن ما تناقلته الأخبار بأن بعض العمليات التفجيرية الأخيرة في العراق، والتي استهدفت قوافل عسكرية أمريكية تمت بواسطة قنابل تشبه إلى حد ما تلك التي كانت تستعمل ضد الوحدات العسكرية المحتلة في جنوب لبنان، يجعلنا نتصور أننا أمام مصادفة غريبة جدا يصعب تفسيرها، فهل يعني هذا أن حزب الله صار يبذل خبرته الطويلة في هذا المجال، خاصة وأن هذه التفجيرات صارت تستهدف الأمريكان في الجزء الغربي من العراق، ذلك الجزء البعيد عن الحدود الإيرانية. وهو ما قد يرجح احتمال التنسيق بين الإيرانيين وحزب الله لترتيب هجمات عسكرية ضد قوى الاحتلال بقرب الحدود السورية، وبالتالي على مسافة قريبة بشكل لافت من معسكرات حزب الله في البقاع على وجه التحديد.

إن تأكيد مثل هذه الفرضية شيء غير يسير، ولكن نفيها أيضا يتطلب تفسيرا معقولا آخر يمكننا من خلاله فهم ما يجري على وجه الدقة، لأن الجميع الآن بات يدرك أن أرض العراق صارت مرتعا لكل العمليات، إذ لن نضيف شيئا حينما نلاحظ أن هذا التمرد، مثلما تسميه الصحف الأمريكية، يمضي من غير أن يعرف له أحد وجهة محددة، في حين أنه كان يفترض أن تكون هنالك جهة سياسية واضحة تمثله وتؤطره بدلا من ترك حبل الغارب هكذا، لا يحقق تقدما إلا وتلازمه بعض الشبهات.

لا شك في أن إسرائيل تلعب دورا محوريا في تعفين الوضع وإثارة حالات الاحتقان التي تهدف إلى إشعال الوضع برمته ودفعه نحو الانفجار في اتجاه الحرب الأهلية بين مختلف أطياف المجتمع العراقي، وهذا أمر كان متوقعا، ولكن الذي لم يكن أحد يتوقعه قبل اليوم على الأقل، هو ألا تهتم كل دول الجوار سوى بتعزيز نفوذها.